صفحات من كتاب تحت الطبع

أميـــــرة بـــابليـــــة

اكتشاف لسيرة ورصد لنجمة أشعت من سماء تلكيف إلى ثقافات الدنيا مخبأة في مدونات القرن التاسع عشر

تحرير: امل بورتر

٤-٣

انحدر من عائلة من الشرق، تعود اصولها الى البراهما. الذين اعتنقوا المسيحية من زمن بعيد على نهج كنيسة ترافانكور التي اسسها توما رسول سيدنا المسيح في الهند. اجدادي لقرون مضت وحسب التقاليد العائلية رحلوا عن ترافنكور الى بلاد فارس واستقروا اخيرا في بغداد، جدي الامير عبد الله كان رجلاً واسع الثراء حيث امتلك الاراضي وممتلكات اخرى من بينها بيوت واغنام ومزارع انتاج الحرير والجمال التي بلغ عددها خمسة الاف جمل.

بعد فاة جدى ورث ابي واخوته الاربعة ثروته وكان من مبعث غبطة والدي ان يستخدم مكانته وثروته في نشر الديانة المسيحية.

والدي كان يتبع الطقوس الكنسية الكلدانية والتي هي شريكة للكنيسة في روما .

منزل والدي كان ملاذا لكل انسان بائس ومن اي طائفة ان كان مسيحياً او يهودياً او مسلما.

لقد ابتنى بيتا خصيصا لهذ الغاية و لأستقبال الغرباء وكان يذهب بحثا عنهم وعندما يجدهم كان يدعوهم اليهذا البيت ويغسل اقدامهم بيده ويقوم بضيافتهم و بخدمتهم بنفسه.

اتذكر عندما كنت طفلة ان شخصا معينا احتمى واتخذ من هذا البيت ملاذا كان مبشراً واسمة كابريل دومبو (Gabriel Dombo) وفي سبيل نشر افكاره الدينية تعرض الى حكم قاس ادى الى قص لسانه. هذا الرجل بقى معنا لمدة سنتين وبعد ذلك منحه والدي مبلغا من المال كافيا ليستطيع ان يؤسس كلية لتدريب المبشرين.

وباء الطاعون انتشر في بغداد سنة١٨٠٤ مما جعل والدي يقرر الرحيل والابتعاد بعائلته الى الريف بقرب خرائب نينوى حيث كان يملك منزلاً.

البيت كان يسمى (قصر العزة) Kaser El Aza في هذه الفترة ولدت في خيمة منصوبة في الصحراء ليست ببعيدة عن دار والدي ربما كانت الخيمة مكاناً لنواح والدتي لفقدانها عدداً من افراد عائلتها خلال وباء الطاعون وكذلك لخسارتها أخاً كان عزيزاً عليها وافاه الاجل اثر لسعة ثعبان سام حين كان في رحلة صيد.

وقبل وفاته عاني الكثير من العذاب نتيجة ممارسة نوع من العلاج مورس في ارض الرافدين وعرفت هذه الطريقة في العلاج من اثار مسوبوتاميا. هذا العلاج يقتضي بان يمنع المصاب من النوم لمدة خمسة ايام وذلك بضرب الطبول والوخز الشديد بالابر اذا ظهرت اعراض الدوار وخلال كل تلك الايام كان يسقى الحليب فقط الى ان يبدأ بالتقيؤ وبذلك يتخلص من سم الافعى.

لهذا النوع من التعذيب تعرض خالي لمدة خمسة ايام وبدون فائدة اذ في النهاية كان السم قد سرى في بدنه ولم يفلح اي انسان بازالة هذا السم القاتل.

واخيرا انتهى الطاعون واوقف انتقامه ولكن وخلال ذلك محا عوائل بكاملها وملأ البيوت بالاحزان عندها قرر والدي العودة الى بغداد وهناك بقيت الى ان بلغت الرابعة من العمر.

في بغداد كان بيتنا قصراً رحباً وواسعاً جدا، محاطاً ببساتين غناء موفورة باشجار النخيل والليمون الحلو والبرتقال، تسقى بواسطة جداول عديدة من النهر.

في هذه البقعة البهيجة قضيت ايام طفولتي ،كثيرة جدا العاب (الاستغماية- الختيلة) التي كنت العبها مع اخوتي في متاهة هذه الحديقة الواسعة وتلك الذكريات ما زالت طرية في ذاكرتي كاي فترة من فترات حياتي.

في البيت المجاور لنا كان يسكن اغا عصملي Osmanli Aga مسلم مؤمن ملتزم بتعاليم الدين مكرس نفسه للعبادة التي كما جاءت في القران وكان يرتعب من غير المؤمنين من اي طائفة او قومية كانوا.

لم يطق الكفار بنفس الحمية والحماس وبكل معنى الكلمة، لم يكن يدع اي يوم يمر بدون ان يكرر صلواته عدد المرات المفروضة عليه حسب القوانين المكتوبة.

اتذكر عندما كنت في حوالي الثامنه من العمر كنت العب لعبة الختيلة مع احد اخوتي ،كنت حينها سريعة ومتيقظة مثل القطط ،بعد مرور ساعة من اللعب في البستان استهوتني فكرة تسلق نخلة والاختفاء بين سعفاتها كانت النخلة مجاورة لدار الجار المسلم. هنا فوق النخلة سحرتني فكرة الاختفاء عن اخي وبحثه اللامجدي في ارجاء البستان الواسعة.

حيلتي نجحت ابلغ نجاح وحسبما تمنيت، ومن بين سعف النخلة كنت ارى اخي الصغير يركض مسرعا بين الاشجار من هنا وهناك اخذا في الحسبان عدم تركه اي ركن او زاوية بدون ان يبحث عني فيه، ولكن لم يخطر بباله ولو للحظة واحدة مكان اختفائي.

بعد تمتعي بفشلة وخذلانه ولمدة طويلة نسبيا اردت له ان يعرف مكان اختفائي وبدون تردد وبعبث وذكاء طفولي وبجهد حاولت ان يكون صوتي قريبا من صوت الملة الذي بشكل منتظم يدعو كل المؤمنين الى الصلاة.

بصوت عال بدأت اؤذن واقول (la illahoun ila Allah w" Mahommed reasul Allah) لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله الصلاة احسن من الطعام (El Salat akhsan min eltaam) اذ كان الوقت منتصف النهار ولكن اخي قد تصور ان المؤذن فعلاً هو الذي يؤذن الى ان علت ضحكاتي التي لم استطع ان اكبتها.

بنجاح حيلتي اكتشف مكان اختفائي واعتبر أخي مثلي تماما ما فعلته كان منتهى التسلية، ولكن عند عودتنا الى البيت وبدون ان يمعن التفكير اخذ يقص على والدي ما فعلته خلال لعبنا في الحديقة.

والدي كان مسيحيا ملتزما تماما ومسالما لدرجة انه بوعي وحذر يتجنب ان يتسبب باي اهانة لاخوانه المسلمين، وعوضا عن ان يكون قد اعجب بما قمت به، فرض علي ان ابقى في غرفتي لمدة ثلاثة ايام واعطى تعليماته بان الماء والتمرفقط مصدر تغذيتي طيلة تلك الايام الثلاثة. ولم يتوان عن افهامي بان للحيطان آذاناً.

من فوق الجدار المجاور لبيتنا وفي بستان الجار المسلم كانت شجرة ليمون ممتلئة بالثمار الكبيرة الناضجة، كل يوم امر اراقب تلك الثمار التي انضجتها الشمس، بعيون متلهفة وفم متعطش وفي فكري تدور خطط وخطط لقطف هذه الثمار الشهية ،مثل امنا حواء التي ارتكبت الخطيئة الاولى في مكان ليس ببعيد (١) عن هذا المكان لم استطع مقاومة الاغراء الشرير واصبحت بدوية مثالية. كل مرة كانت تحبط وتقطع محاولاتي بظهور احد اخوتي.

ولكن يوما ما وحينما زال خطر ان يباغتني احد، طلبت من احد الخدم ان يضع سلما على حائط بيت الجارتسلقت السلم والثمرة المحرمة كانت قريبة المنال وبقلب يخفق بالمرح والامل الممزوجين بالرهبة والخوف قطفت اكبر ثمرة من الليمون الحلو التي استطاعت يدي الامساك بها.

نزلت السلم وبيدي الليمونة.

لا ادري لم كان طعم الليمونة تلك شهياً حلو المذاق لأنها كانت من النوعية الممتازة ام ان مغامرتي اضفت عليها طعما خاصا. لا استطيع ان اقرر ولكنني اعرف بانني تلذذت بها اكثر من اي ليمونة حلوة قد اكلت طوال حياتي ولم استطعم ذاك المذاق ابدا.

ولكن هنا متعتي انتهت مثل اي اثم ومنتهك وبوخزات من يقظة الضمير التي تبعت تلك المتعة.

والدي لم يكن يتواني عن قراءة الوصايا العشر لعائلته وبقية من في البيت في الاقل مرة واحدة كل يوم وكان عندما يصل الى الوصية التي تقول لاتسرق كان ضميري المعذب يصحو ويستيقظ.

لم يكتفِ والدي بترديد هذه الوصية بل كان يضخم العبارات ويصل بها الى ابعد مداها ويقول ان الامين على الاشياء الصغيرة امين على الكبيرة ايضا والذي لا يتواني عن النشل وسرقة التوافة سيصبح بحكم العادة لصا كبيرا ولكن الكفارة الوحيدة لهذا الاثم والتوبة هو باعادةالمسروقات.

لم استطع ان اتحمل الندم الذي اخذ يثقل ضميري، قررت بجد ان اجد طريقة لتعويض جارنا عما فقده بما انه ليس بمقدوري اعادة ليمونة كبيرة بحجم تلك التي سرقتها لذا فكرت بان اعوض الجار المسلم بثلاث او اربع ليمونات بحجم اصغر عوضا عن تلك الليمونة الكبيرة.

وبانتهاء هذا العمل التعويضي اعتقدت ان المسالة منتهية تماما ولسوء الحظ ان الجار المسلم اشتكى لوالدي بان احد افراد عائلتنا كان يسلي نفسه برمي الليمونات الصغيرة من فوق جداربيتنا ولقد سقطت على راس احد الاطفال وهو يلعب في البستان.

وعلى اثر هذه الشكوى اجتمع بنا والدي واخذ يستجوبنا واحدا واحدا عمن كان يرمي الجيران بالليمون انكر الجميع علمهم باي شيء من هذا القبيل الى ان وصلني الدور.

والدي كان قد عزز لدي فكرة قول الحقيقة مهما كانت الاسباب وعدم البوح بغير الحقيقة او الكذب حتى لو كان في ذلك خلاص العالم. كل تلك التعاليم استولت على تفكيري وفي الحال اعترفت بكل شيء وشرحت كيف ان ضميري كان يعذبني خلال تلاوتي لصلواتي وانني الان اضع نفسي بين يديه ومستعدة لتلقي العقاب القاسي والطويل الذي يراه والذي كنت اتوقعه لأتوب عن ذنب اقترفته.

لكنني كنت على خطأ اذا ان والدي قد اعطي للصراحة وقول الحقيقة اعلى القيم السلوكية لذا قرر ان يسامحني ويعنف اخوتي الاشرار الذين اطلقوا علي اسم سارقة الليمون.

منذ ذلك اليوم والى يومنا هذا لم اقل اي شيء يخالف الحقيقة كانت تلك تجربتي الاولى للسيطرة على كل الظروف المرعبة بقيت هذه التجربة والدرس الذي تعلمته معي طوال حياتي في الايام المحظوظة او عكسها.

يؤسفني ان اقول ان صراحتي في الاوقات غير المناسبة جعلتني ارتكب ما يسميه الفرنسيون betises كنت دائما صريحة لوان سوء الحظ اوقعني مع بدوي فانني لن اتواني عن قول الحقيقة بانني املك مالاً ولا اكتفي بذلك بل واحدد له تماما الكمية التي احملها ولو كان السلابة وهابيين او يزيديين او اخرين من قطاع طرق الجزيرة العربية لأختلفت نتائج هذه الواقعة. وا حسرتي ويا للحضارة كم يحزنني ان هذا الضعف في لو اعتبرت ان صراحتي ضعف: هذه الصراحة كانت ستقدر وتثمن في معظم الا رجاء المتنورة من اوربا المثقفة الا انه من المفروض ان شعاع المعرفة انبثق من ارضنا وكان قد بدد ضباب ظلامنا الاسيوي.

عندما كنت اسكن في باريس تعرفت على دوقة فرنسية تظاهرت بانها شديدة التعلق بي ولا استطيع ان اصف مدى تحببها ولا عمق مودتها لي، كنت كل شيء في حياتها كابنة او اخت، كانت موهوبة جدا، متزوجة من رجل غني ولكنها لم تكن تعيش معه منذ فترة من الزمن، الا انها كانت تملك عقارات.

(١) اشارة الى القرنة وشجرة ادم حيث يعتقد بانها جنة عدن

تقرير د. صاحب الحكيم عن جرائم صدام حسين وثيقة تاريخية مطلقة

الكتاب..تقرير عن اغتصاب وقتل وتعذيب واعتقال أكثر من ٤٠٠٠ امرأة في العراق

المؤلف : د . صاحب الحكيم - لندن
الطبعة الأولى ٢٠٠٣

عرض وتقييم : جاسم المطير

ما الذي حدث في بلاد الرافدين في حقبة أربعة عقود قاسية ..؟ ملايين الناس في العراق يشكون من أمراض عصبية حالما سقط نظام صدام حسين سواء كانوا داخل العراق او خارجه ، كل واحد يشعر انه متعب نفسيا وجسديا .

المواطن العراقي يشعر بالمرض لكن الطبيب يقف مندهشا حين يقرأ تحاليل الدم ووظائف الغدد والكشف على الضغط ونبض القلب فلا أمراض فيها لكن الناس يشكون .

الأطباء في العراق وخارجه سرعان ما يدركون أن العلة لا تكمن في الإنسان العراقي المتوجع بل تكمن في وضع عام وخاص طارد الناس ولاحقهم بعنف في حياتهم اليومية ، أوجدته مخاوف السلطة التي حكمت العراق لأربعة عقود بالحديد والنار فأمرضت عقولهم حتى غدوا بلا أحلام ولا استقرار ولا أهداف وبلا أمل في مستقبل .

ما هو التفسير ..؟

من خلق الظاهرة ومن سجلها ..؟

ولماذا أحس الشبان العراقيون بشيخوختهم ميكرا ..؟

من هو المسؤول عن جريمة العذاب والملل والخداع والتزوير والكذب والقتل الفردي والمقابر الجماعية .. من يستطيع أن يلتقط أنفاسه ليقدم الجواب أو صورة مقاربة لجواب ..؟

أمضيت ثلاثين يوما في قراءة كتاب . تقرير الدكتور صاحب الحكيم -الذي بدا لي من أول وهلة انه مدرك من مدركات الجرائم الكبرى التي ارتكبها صدام حسين من دون حاجة إلى استخدام أي نوع من أنواع الجانب البلاغي في لغة السرد المتواصل لعروض وصور الجرائم واحدة تتبع أخرى .. ساير فيها الجرائم من العمق إلى السطح تارة ومن السطح إلى العمق تارة ثانية ليحقق بالتالي تشويشا بالقارئ مما يستشفه من جرائم لا يستوعبها العقل البشري المعاصر .

ولأن وزن الكتاب يزيد على الكيلوين ونصف بقليل فقد أتعبني حمله من مكان إلى آخر داخل بيتي فعدد صفحاته ٩٣٠ صفحة من الحجم الكبير (حجم مجلة) ، لكنني والحق أقول انه كتاب من طراز خاص غني بتراكمية الجرائم التي ارتكبها صدام حسين شخصيا ونظامه الدكتاتوري بصورة عامة مما جعله كتابا من الوزن الثقيل حقا .

كل صفحة فيه ، ولأكون أكثر دقة ، فأقول أن كل قسم فيه يبدأ من النقطة التي انتهت فيها كتابات مماثلة ، عراقية وعربية وأجنبية، من تلك الكتب التي ألفها آخرون قبله حتى أصبح هذا الكتاب . التقرير بمنزلة نتيجة جرمية نهائية أو كمطالعة شعبية عامة ومفصلة تدين صدام حسين إدانة كبرى لا تقبل شكا ولا تبريرا ولا ترميما ، وسوف أتطرق لاحقا للسبب الذي يدفعني لهذا القول ، بل استطيع القول : لو أن الأحكام التي صدرت عن المحكمة الجنائية العليا ببغداد تبرئ ذمة صدام حسين من جريمة الدجيل لبراعة المحامين . مثلا . ولو افترضنا أيضا انه تخلص من جرائمه في الأنفال وحلبجة وانتفاضة الشعب العراقي ١٩٩١ وغيرها من جرائم القتل الجماعي والفردي ، فقد ثبت عندي بالاطلاع والتعليل المؤكدين أن صدام

حسين لا يسلم من وقائع دامغة جمعها الدكتور صاحب الحكيم في مدى ١٢ عاما ووضعها ودونها وصورها في تقريره بطرائق خاصة وبسجية بسيطة خاصة ، فيها من الرواية الموثقة ما يجعل كتابه هذا موقعا مؤثرا في قناعة الأجيال القادمة في داخل العراق وخارجه بحجم الجرائم الكبرى التي احتواها هذا الكتاب الذي يفصح عما ينطوي عليه العقل السادي الذي حرك صدام حسين ونظامه طيلة٣٥ سنة فقد أدرجه كتاب -تقرير الدكتور صاحب الحكيم بزاوية ضيقة لا يستطيع لا لسان الطغاة ولا فقه أعوانهم ومحاميهم من تبرير جرائمهم .

المنهج المعتمد في الكتاب -التقرير هو منهج تركيبي
جريمة بعد جريمة
وجريمة فوق جريمة

ثم تترابط موجودات الجريمة لتكون سيلا من صلب صناعة ألحقت بنظام معين وأصبحت من أوليات ممارساته ووجوده واعني نظام صدام حسين .

من خلال قراءتي استرعى انتباهي توظيف المؤلف عدة أساليب فمرة أسلوب الحكاية ومرة ثانية أسلوب المقابلة والحديث مع الضحية ومرة ثالثة في تحليل خطاب رسمي وغير ذلك من سلوك جميع وسائل تبيين الجريمة .

صفحة بعد صفحة يدرك القارئ أن المؤلف رجل عارف بالجرائم المرتكبة لكن المعرفة تبقى فطرية إن لم تستند إلى نظام معرفي عام لكي يصبح الكتاب انعكاسا للواقع الذي عاشه الشعب العراقي تحت سياسات ومؤثرات صدام حسين المعلومة بالجريمة الفردية وبالجريمة العمومية .

يتفاضل هذا التقرير -الكتاب بالالتماسات التالية :

أولاً . إن صفحاته كانت تنافس بعضها اعتمادا على الأرقام والتواريخ وهي لا حصر لها في الكتاب.

ثانياً . إن تخريجات أرقام الجرائم المثبتة في الكتاب - التقرير دقيقة ومصنفة وفقا لوقائع مشهودة في أعين الثقاة الأحياء من الذين واجهوها وواجهتهم أو واجهت أبناءهم أو أقرباءهم، وهذه الوقائع لم تخضع لتأويلات نظرية أو لمبالغات مقصودة من هذا المتحدث أو ذاك من الذين قدموا شهاداتهم أمام الدكتور صاحب الحكيم ، بل اعتمد وضع قرائن ما حاز عليه من معلومات كما هي بمادتها الخام كمعلم من معالم الجريمة التي ارتكبها صدام حسين ونظامه .

ثالثاً . حاول المؤلف أن لا يكون واقع جرائم صدام حسين خفيا ومجرد حكايات مروية بلسان أو عن لسان احدى الضحايا، بل اخضع مادة السماع إلى الفحص والتدقيق و التأكيد والتدوين والإثبات . وقد أخذت صفحات الكتاب -التقرير تتسع واحدة بعد أخرى ثم تعلو فوق مرويات اللسان مسندة بالوثائق الصادرة عن قيادة حزب صدام حسين أو أجهزة حكومته القمعية.

هذه الثلاثية التي اعتمدها كاتب التقرير واعني ثلاثية (الأرقام + الوقائع + الوثائق) جعلت عمله ليس مذهلا حسب بل جعلته جزءا مهما من معرفة سياسية - قانونية قائمة على مظاهر وشروط جعلت مضمون الكتاب بنية تاريخية مهمة وواضحة عن جرائم صدام حسين ليس بحقوق الإنسان العراقي حسب بل أسست لإدانته بجرائم ضد الإنسانية جمعاء بما ارتكبه من حروب ومؤامرات بحق شعوب أخرى .

تضمن الكتاب -التقرير جرائم متعددة الأنواع من قتل واغتصاب نساء وتعذيب أكثر من ٤٠٠٠ امرأة عراقية وغيرها من الجرائم الشاملة كجريمة العدوان على الشعب الإيراني وجريمة غزو دولة الكويت ومن بعدهما جريمة قمع انتفاضة الشعب ١٩٩١ وقبلها جرائم الأنفال وحلبجة والمقابر الجماعية وقد اظهر تسلسل الجرائم المرتكبة أنها بلا حدود وبلا موازنات وقد قل مثيلها ومقابلها في الجانب الموصوف لدى أنظمة دكتاتورية أخرى بما فيها نظام الفاشية الهتلرية .

ربما أراد صدام حسين أن تكون وقائع حكمه خفية إلى الأبد ، ومن شأن الخفي أن يتجلى بعضه في أقصى الحالات ، لكن هذا الكتاب - التقرير أراد أن يكشف الخفي كله ، بل تمكن من أن يكشف عمق الخفاء كله مسلطا الضوء على كل الظواهر الهمجية بدقتها وبنوعها الذي يسكت اللسان عن النطق أمامه ويشيب الشعر حين يقرا القارئ روايات الألم الإنساني غير المعقول والتي لا يمكن لأي احد أن يجد الأسماء أو المصطلحات المناسبة لها من شدة قسوتها .

الكتاب -التقرير كان برمته مسارا ناجحا وعادلا في إدانة نظام صدام حسين باعتباره عقلا همجيا ضد العقل والحرية والإنسان وسيظل ليس فقط ٩٣٠ صفحة تدين الجريمة والمجرم بل هي وثيقة جلية من وثائق الكفاح ضد الأفكار والممارسات المعادية للبشرية .

بصرة لاهاي في ٢٢-٣-٢٠٠٦

د . صاحب الحكيم

حبال الغسيل
رواية جديدة للروائي
طه حامد الشبيب

بغداد / المدى

بدعم من صندوق (المدى) للتنمية الثقافية، صدرت عن القبس، رواية جديدة للروائي العراقي طه حامد الشبيب، تحت عنوان (حبال الغسيل) كتبها خلال السنوات الثلاث الماضية، التي شهدت اقسى مرحلة من تاريخ العراق المعاصر، حيث لامست الواقع المرير، من خلال احداثها التي ركزت على تفاصيل دقيقة، عبر سرد روائي مازج بين الواقعية والفنتازيا التي عرف بها الروائي الشبيب، في رواياته الثمان الاخرى التي بدأها برواية الجراد في العام ١٩٩٥ مرورا برواية مأتم والضفيرة والحكاية السادسة ومواء وطين حري حتى روايته الاخيرة هذه.

تبدأ الرواية بوصف لبناية وزارة الدفاع في الباب المعظم، المحاذية لنهر دجلة، التي يطل عليها جسر مدينة الطب، وكيف تحولت الى خرابة يسكنها من لا مأوى له، من خلال حبال الغسيل التي يشير اليها الروائي "نعم حبال غسيل تمتد بين الاعمدة الهائلة التي ترفع سقوف شرفات المكاتب الموجودة في الجناح الذي قيل ان رئاسة الاركان تشغله مع وزير الدفاع. وعلى ذكر الشرفات، كنا نسمع ان كبار ضباط الجيش وهم جالسون فيها على كراسي هزازة كانوا يصطادون السمك بالسنارة.

"الرواية ص٦"

من هنا تتضح تلك المزاوجة بين نقل الواقع الحالي المزري، والواقع السابق المزري ايضاً، منطلقا الى احداث اخرى، تقع في صلب الواقع المعيش الذي يشكل واقعاً متأزما، وخانقاً لايقل عن الواقع الذي قبله وبذلك تحقق رواية الشبيب الجديدة انطلاقة جديدة له في رصد الواقع المعيش واعادة نسجه سردياً.